Dirassat

Volume 16
Number 16 عدد خاص: سوس والصحراء

Article 7

2013

القاضي الطيب بن محمد التملي الروداني ودخول المطبعة إلى المغرب

مصطفى بن عمر المسلوتي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، جامعة إبن زهر، المغرب, m.meslouti@hotmail.fr

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat

Part of the History Commons, and the Religion Commons

Recommended Citation

"القاضي الطيب بن محمد التملي الروداني ودخول المطبعة إلى المغرب" (2013) مصطفى بن عمر المسلوتي, "
Dirassat: Vol. 16 : No. 16 , Article 7.
Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol16/iss16/7

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on Digital Commons, an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aaru.edu.jo, marah@aaru.edu.jo, u.murad@aaru.edu.jo.

القاضي الطيب بن محمد التملي الروداني ودخول المطبعة إلى المغرب

Cover Page Footnote
الطباعة العربية في أوروبا: أحمد رمزي، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد 22، سنة 2005، ص 96 1

This article is available in Dirassat: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol16/iss16/7

القاضي الطيب بن محمد التملي الروداني ودخول المطبعة إلى المغرب

مصطفى بن عمر المسلوتي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر – اكادير

مقدمة :

يعتبر اختراع الطباعة عل يد الألماني يوهان كوتنبرغ سنة 1455م من أهم الأحداث التي غيرت مجرى الفكر الإنساني في بداية عصر النهضة، ومن الفتوحات العلمية العظيمة التي مكنت الجمهور الواسع من اقتناء الكتاب بأعداد وفيرة خالية من الأخطاء التي يرتكبها النساخ وبخط جميل وشكل متناسق بديع.

أما المطبعة العربية فقد ظهرت في أول أمرها في أوربا على يد الفاتيكان الذي استعملها لأغراض تبشيرية [1]، وبها طبعت الأناجيل المختلفة للنصارى العرب وكتب اللغة مثل مقدمة ابن آجروم وكتب الفقه الاسلامي من أجل تمكين الرهبان والدارسين في علم اللاهوت من تعلم العربية و فهم المسلمين بهدف غزوهم في عقر دارهم.

ويعتبر المغرب من آخر الدول العربية والإسلامية استعمالا لآلة الطباعة ولذلك أسباب سنذكرها في محلها، وكانت سنة 1864م هي السنة التي ولجت فيها تقنيات المطبعة إلى رحابه ليس على يد المخزن أو موظفيه الكبار ! بل على يد السي الطيب التملي الروداني رحمه الله ، فمن هو هذا الرجل؟ وكيف فكر في جلب المطبعة من المشرق؟ وكيف كان تصرف المخزن معه ؟ و ما مآل المطبعة التي جلبها من المشرق؟ هذه بعض الأسئلة التي اقترح الإجابة عنها في هذا العرض المتواضع في ثلاثة مباحث :

الأول : في التعريف بالسي الطيب التملي

الثاني : في أولية الطباعة في المغرب

1. نبذة عن حياة السي الطيب التملي الروداني

المعلومات عن حياة السي الطيب التملي شحيحة جداً وهي عبارة عن روايات شفوية ومقيدات القاضي موسى بن العربي الرسموكي وقد ضمنها العلامة المختار السوسي في كتابه : «خلال جزولة » و كذلك ما ذكره محمد المنوني في « مظاهر يقظة المغرب

(1) الطباعة العربية في أوربا : أحمد رمزي ، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد 22، سنة 2005، ص 86.

Published by Arab Journals Platform, 2015

الحديث »، ومن جاءوا بعدهما اعتمدوا عليهما في النزر اليسير من المعلومات الواردة في كتابيهما عن السي الطيب التملي، وقبل التطرق لسيرته يجذر بنا أن نعرج على أسرته للتعرف على بعض أفرادها.

أ. الأسرة التملية الرودانية

تنسب الأسرة التملية إلى تيزخت من قبيلة أملن[2] شرق مدينة تزنيت في اتجاه تافراوت لا يعرف تاريخ استقرارها في تارودانت ولا ظروف انتقالها من آملن وقد أخذت هذا الاسم من موطنها الأصلي على عادة المغاربة في نسبة الأسر إلى بلدانها أوحرفها أو غير ذلك .

- أول رجل مشهور في هذه الأسرة هو محمد بن أحمد التملي الزغنغي الروداني، وقد تولى خطة القضاء بتارودانت بعد أن عرضها المولى عبد الرحمن بن هشام على سيدي عبد الله الخياطي فأشار بسيدي محمد بن أحمد ، يقول العلامة محمد المختار السوسي: «فكان ذلك هو السبب حتى ارتكز القضاء في بيت التمليين قبل 1255 هـ [3]»، ويضيف بأنه كان فقيها متمكنا بارعا ذا صولة و أبهة في قضائه يداخل الرؤساء المخزنيين و يناوئهم، وقد نفي هو و القائد بومهدي مدة ثم عفي عنه و رد لداره فرجع لخطة القضاء، وكانت وفاته فيما يظن في آخر عهد المولى عبد الرحمن أي قبل 1276 هـ ، وقد رأيت له فتاوى كثيرة» [4].
- ثاني رجالات الأسرة هو السي الطيب و سنرجئ الحديث عنه إلى أن نأتي على ذكر أهله.
- ثالث رجالات الأسرة هو إبراهيم : ذكر المختار السوسي بأنه « درس بفاس، وعندما رجع إلى تارودانت تولى التدريس و النيابة عن أخيه عبد الكريم ، توفي قبل أخيه في نيف و تسيعين ومائتين و ألف [5]».
- رابع رجالات الأسرة هو عبد الكريم بن محمد، يقول عنه المختار السوسي بأنه كان أوسع أهله علما و أرضاهم خلقا درس بفاس و عند رجوعه من القرويين درس بتارودانت و كان لا يحب أن يطاوله أحد في العلم ، و ظهر له أن يحل

(2) خلال جزولة : محمد المختار السوسي المعهد الإسلامي بتارودنت، عمر المتوكل الساحلي، 319/318.
(3) خلال جزولة : 4 / 116 .
(4) خلال جزولة : 4 / 120 .
(5) خلال جزولة : 4 / 122 .

محل أخيه لما يرى لنفسه من تقدم عليه فلم يواجهه السي الطيب بل فسح له المجال و لا يدرى هل تولى القضاء في حياة أخيه أم بعد وفاته [6].

يقول المختار السوسي عنهم « بأنهم معروفون بالخير و الصيانة لولا ما في عبد الكريم من تطاول على المتداولين أحيانا » [7].

عرف عن الأسرة أن لها ضياعا و أملاكا كثيرة في المدينة غير أنهم تركوا نساء و صبية كثيرين و بمجرد وفاة عبد الكريم تفرق شمل الأسرة و امتدت الأيدي إلى متروكها ، يقول المختار السوسي : « و قد مات إبراهيم بن عبد الكريم الذي تركه أبوه صغيرا ليلة الخميس فاتح شعبان 1229 هـ » [8]، كما ابتليت الأسرة كذلك بقاضيين ظالمين هما عبد الرحمن بن مبارك الكطيوي غريم العلامة سيدي الحاج أحمد الجشتيمي و أمه كانت زوجة لمحمد بن أحمد التملي الأب و كذا القاضي بن اليزيد وقد تزوج بخديجة بنت السي الطيب فامتدت أيديهما إلى أملاك الأسرة خاصة الأول حيث قال عنه محمد المختار السوسي حسب رواية سيدي موسى العربي الرسموكي : بأنه احتوش كل ما توصل إليه و كان يذكر بجشع عظيم فلا يعرف القناعة و حسبك أنه يتطاول إلى الثروة بالمصوغ المغشوش . . . » [9] .

و قد ورد في إحدى القصائد التي اشتكى فيها العلامة أحمد بن عبد الرحمن الجشتيمي إلى المولى الحسن الأول من هذا القاضي قوله :

و منعه امرأة التملي من إرث و من نكاح ذي دين قمن [10]

ب . ترجمة السيد الطيب التملي

1 . تحقيق الاسم

يرد اسم القاضي الروداني الذي أدخل المطبعة إلى المغرب في المصادر أحيانا الطيب و أحيانا أخرى محمد الطيب ، و بهذا الاسم الأخير أورده المؤرخ محمد المنوني في «مظاهر يقظة المغرب الحديث » [11] وعنه نقل فوزي عبد الرزاق في « مملكة الكتاب [12]» مع أنهما أوردا العديد من الأدلة على أن الطيب هو الاسم الصحيح للرجل في حديثهما عنه .

(6) نفسه 4 / 122 .
(7) نفسه 4 / 122 .
(8) نفسه 4 / 122 .
(9) نفسه 4 / 123
(10) نفسه 4 / 126 .
(11) مظاهر يقظة المغرب الحديث : محمد المنوني : 1 / 261 .
(12) مملكة الكتاب : فوزي عبد الرزاق: 129-130.

و اسم محمد الطيب قد يكون الاسم المركب على عادة المغاربة من التسمية بمحمد الحبيب و محمد العربي و محمد المختار وغير ذلك و هو المثبت في رسالة الحسن الأول عندما كان وليا للعهد إلى القاضي سيدي الطيب والني احتفظت بها الحوالة الحبسية بتارودانت[13] والإجازة التي أوردها محمد المنوني من أبي عيسى المهدي بن سودة و المؤرخة بذي القعدة عام 1265 هـ [14] من المرجح أنها لمحمد بن أحمد التملي وليس للسي الطيب بدليل قوله بأنه كان قاضيا لوجدة وقد علق محمد المنوني رحمه الله على ذلك بقوله: كأنه كان قاضيا بها قبل أن يتولى قضاء تارودانت[15] و الذي تولى قضاء وجدة هو محمد بن أحمد و ليس ولده السي الطيب ولعل تسميته بمحمد الطيب هو الذي أوقع العلامة محمد المنوني في هذا اللبس .

2. ولادته و نشأته ووظائفه

لا تشير المصادر إلى مكان ولادة السي الطيب . ولا شك أنه نشأ بتارودانت حاضرة سوس في كنف أسرته العالمة وبها تلقى تعليمه الأولي ثم وسع من أفقه الدراسي بسوس قبل الانتقال إلى فاس لاستكمال تكوينه على عادة أبناء الأسر العلمية ، و المصادر لا تشير إلى شيوخه ولا إلى ما لأخذ عنهم وسنوات الدراسة ، وبعد رجوع السي الطيب تصدر للتعليم بتارودانت شأنه في ذلك شأن أبيه وإخوته[16] كما كان ينوب عن والده في القضاء في فترات غيابه ثم تولى هذه الخطة بعد وفاة والده خلال مدة غير محددة انتهت بوفاته بعد سنة 1284هـ/ أو سنة 1285 هـ .

وقد أخطأ جرمان عياش عندما استنتج من قراءته للعقد المبرم بين السي الطيب والطابع المصري بأنه كان باشا لمدينة تارودانت وقد خلف أباه في هذا المنصب[17]، وقد استفاد ذلك من قول القباني اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني ابن المرحوم محمد الروداني ، و القباني في كتابته لهذا اللقب لم يعن به المنصب المعلوم في مصر بل ساقه على جهة الاحترام و التقدير للسي الطيب ولو كلف الأستاذ جرمان عياش نفسه الرجوع إلى كتاب "خلال جزولة"وغيره لظهر له الصواب .

(13) الحوالة الحبسية ، 1/ 119 .

(14) مظاهر يقظة المغرب الحديث . 26/1.

(15) نفسه، 26/1

(16) مملكة الكتاب : فوزي عبد الرزاق ، 138 .

(17) L'apparition de l'imprimerie au Maroc : J.Ayach : 155

3. وفاته و أقوال الناس فيه

يقول فوزي عبد الرزاق بأن مصير الروداني بعد أخذ المطبعة منه لا يعرف ويبدو أنه توفي سنة 1282 هـ أي 1865م وذلك نقلا عن المختار السوسي حسب ما أفاد به القاضي موسى بن العربي الرسموكي ويظهر من خلال الرسالة[18] التي بعث بها الحسن الأول عندما كان وليا للعهد للطيب التملي أنه كان حيا سنة 1284هـ أو حتى سنة 1285 هـ لورودهما معا في الرسالتين و مع ذلك لا نعرف السنة التي توفي فيها السي الطيب بالتحديد .

كان السي الطيب رحمه الله ذا سيرة حسنة وذكر طيب وحسبنا دليلا على ذلك شهادة الحاج أحمد بن عبد الرحمن الجشتيمي له في قصيدة رثائه عندما قال :

إمام الهدى والعلم و الحلم سيد الرضا الطيب المشهور كالروض بالزهر[19]

ويقول عنه محمد المختار السوسي "بأنه كان أدمث أهله خلقا و ألينهم عريكة"[20]

وقد خصه البشير بن محمد بوحدو السلاوي بتأليف صغير سماه "بكرة الافتضاض في بغية الانقضاض" شرح فيه قصيدة في مدحه وسماه بقاضي قضاة سوس الحاج الطيب بن محمد يمل وهذا الكتاب موجود ضمن مخطوطات الخزانة العامة تحت رقم 97 ج ، ومما قاله في الكتاب أنه بذل المجهود في حفر عين من الماء العذب و أجراه بتارودانت ، وعم النفع بها المساجد والحمامات و المطاهر و السقايات ، وقد وقع الفراغ من تأليف الكتاب و نسخة صبيحة الخميس 13 رمضان عام 1284 هـ [21].

لم يذكر من عقب السي الطيب رحمه الله سوى بنته خديجة التي تزوج بها القاضي محمد بن عبد الرحمان بن اليزيد[22] وبنت أخرى تدعى أمينة عثرت عليها في بعض العقود كانت زوجة لأحد الشرفاء ويدعى مولاي علي بن مولاي الشريف الروداني.

(18) الحوالة الحبسية لمدينة تارودانت : 119 – 121

(19) خلال جزولة 4 /121

(20) خلال جزولة 4 /120

(21) مظاهر يقظة المغرب الحديث 1 /261 - 262

(22) خلال جزولة 4 /122

2. أولية الطباعة في المغرب

تثار العديد من الإشكاليات عند الحديث عن دخول المطبعة إلى المغرب، وسنحاول فيما يلي مناقشة هذه المسألة و تبديد بعض اللبس الذي وقع لكثير من الدارسين حولها :

1. هل كان المغاربة يعرفون الطباعة؟

كانت رغبة بعض موظفي المخزن كبيرة في إدخال المطبعة إلى المغرب خاصة بعد زياراتهم لبعض الدول الأوروبية و مشاهدتهم عن كتب ما أحدثته الطباعة من ثورة في مجال التعليم و الوعي .

فهذا محمد الصفار التطواني الذي عمل في خدمة ثلاثة ملوك يدون في رحلته إلى فرنسا و التي جاءت مباشرة بعد هزيمة "إسلي"كثيرا من الجوانب المتعلقة بالحضارة الفرنسية ومن أهمها دار الطباعة التي كانت تملكها الحكومة حيث وجد بها ثمانمائة عامل منهمكين في أعمالهم وعبر عن حماس شديد أثناء وصفه الدقيق لها بكل الجزئيات و التفاصيل [23] .

وقد وصف طريقة الطبع على الآلة السلكية و صفا دقيقا، كما امتحن الطابعين في كتابة سطر بيده فقاموا بطباعته[24].

ووصف المطبعة الحجرية بقوله :

" و أعجب ما رأينا من آلة الكتابة نوع خاص يطبع للكتابة بأي خط شئت عربيا أو أعجميا مغربيا أو مشرقيا أو كيفما شئت، وذلك أنهم يأتون بالورقة مكتوبة بمداد خاص يصنعونه مستحمر اللون كمداد الجوز فيضعونه على حجرة عندهم ، ويشدون عليها ثم يحلون عنها، فتطبع الكتابة في الحجرة كما هي في الورقة ، ثم يطبعون على تلك الحجرة ما شاءوا من الوراق، بعد أن يدهنوا الحجرة بذلك المداد فتخرج الوراق مكتوبة بمثل الكتابة الأولى من غير زيادة ولا نقصان و لا تحريف و لا تغيير ، كتبت بيدي سطرا بذلك المداد في ورقة وضعوها على الحجرة ، فانطبعت فيها الكتابة ثم طبعوا على الحجرة ورقة أخرى فخرجت بمثل ذلك السطر بعينه فمن أراد طبع كتاب بما شاء من الخطوط فلينسخه أولا بذلك المداد ثم يطبع ما شاء فيخرج الخط الأول بعينه . . . " [25]

(23) مملكة الكتاب 132 .

(24) نفسه 132 .

(25) مملكة الكتاب 133 .

بعد محمد الصفار جاء الحاج إدريس العمروي الفاسي صاحب رحلة " تحفة الملك العزيز بمملكة باريز "وقد قام بها كذلك إلى باريس بفرنسا سنة 1860 وعبر فيها صراحة عن رغبته في جلب المطبعة إلى المغرب لمنافعها الكثيرة وقدم التماسا في هذا الصدد إلى السلطان ، ومما قاله :

"وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع ، هي في كل الأمور عامة النفع ، معينة على تكثير الكتب و العلوم ، و أثرها في ذلك ظاهر معلوم وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام واغتبط بها مشاهير العلماء و الأعلام ، ويكفيك من شرفها وحسن موقعها ، رخص الكتب التي تطبع بها ، وقد اعتنوا بتصحيحها ، وبالغوا في تهذيبها وتنقيحها ، مع جودة الخط و إيضاح الضبط(. . .) إلى أن يقول : ونطلب من الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة و يجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة. . . " [26] .

لم تجد هذه الصيحات آذانا صاغية لدى المخزن المغربي أواسط القرن التاسع عشر ، لأن له اهتمامات ومشاكل أخرى حددتها ظروفه الداخلية الخاصة وتربص الأعداء به من كل مكان وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن أسباب تأخر دخول المطبعة إلى المغرب .

2. لماذا تأخر دخول المطبعة إلى المغرب ؟

رغم قربه الجغرافي من أوروبا كان المغرب أبعد الدول الإسلامية عن التأثر بما يحدث فيها أو الاستفادة من معطيات الحضارة الحديثة التي ابتكرتها ، ويرجع ذلك إلى حالة التوجس و العداء التي حكمت تاريخ علاقته بجيرانه الأوربيين ، وكذلك لانطوائه على نفسه وانشغاله بمشاكله الداخلية .

و إذا ألقينا نظرة عن تاريخ دخول المطبعة إلى العالم الإسلامي نجد السبق لتركيا في بداية القرن الميلادي السادس عشر بعد جدال و نقاش من طرف العلماء ، حيث سمح لغير المسلمين باستعمالها في البداية وعندما أيقنوا من فوائدها سمح باستعمالها للمسلمين[27] .

ودخلت المطبعة إلى لبنان سنة 1583 م ، و في سوريا سنة 1706 م في مدينة حلب [28] . وفي مصر مع الحملة الفرنسية سنة 1798م و أنشأ محمد علي مطبعة بولاق الشهيرة على أنقاض مطبعة بونابرت سنة 1821م ، ودخلت المطبعة إلى الجزائر سنة 1830م مع الاحتلال الفرنسي و بها طبعت مناشير التهدئة و عرفت تونس المطبعة سنة 1860م و كان المشرف عليها هو محمد قبادو و أول ما طبع بها هو"الموطأ"وبعض نصوص الفقه المالكي[29] .

(26) مظاهر يقظة المغرب الحديث 1 /260 – 261.

(27) مملكة الكتاب 107

(28) المطبعة المغربية في أوربا : أحمد رمزي : 112 .

(29) مملكة الكتاب 137

وكان المغرب من آخر البلدان الإسلامية تعرفا على تقنية الطباعة حيث ولجت إليه سنة 1864م ، فما هي يا ترى أسباب هذا التأخر؟

يزعم بعض الباحثين أن أحد أهم أسباب تأخر دخول المطبعة إلى المغرب رغبة المغاربة في المحافظة على نوع الخط الذي اشتهروا به و الذي يحمل نوعا من القدسية لارتباطه بالقرآن الكريم ثم بالمذهب المالكي ، يقول الأستاذ فوزي عبد الرزاق : "كان العلماء المغاربة على السواء يعتبرون عملية نسخ الكتب الإسلامية شكلا من أشكال العبادة تستلزم إلى جانب الحفاظ على المذهب المالكي الإبقاء على خصوصيات الخط الذي كتبت به أقدم نسخ القرآن"[30] .

ونحن و إن كنا نعترف بأن المؤسسات العلمية في المجتمع المغربي لا يمكنها أن تسلم ببساطة في الطريقة التقليدية التي يتم بها نسخ الكتب منذ قرون أو أزمان ، لا يمكن أن نولي هذا الرأي كبير عناية، لأن المطبعة الحجرية لا تقضي على الخط المغربي بل تحافظ عليه وتزيده رونقا و جمالا وتمده بأسباب التطور و البقاء على عكس المطبعة السلكية التي لا تعترف بخصوصيات الخطوط و تجمع بينهما في خط معياري واحد. . .

- هناك من يذهب إلى السبب في تأخير دخول المطبعة إلى المغرب هو ارتباط آلات المطبعة بالنصارى و المغاربة يعادون كل من يأتي من أوربا .

ويرد على أصحاب هذا الرأي بان المغاربة خلال القرن التاسع عشر لم تعد لهم نفس النظرة التقليدية لأوربا و هذا ما يفسر كثرة البعثات و السفارات وحركة الترجمة و التأليف في المجالات العلمية المختلفة . . .

- هناك من يقول : يمكن أن تتضرر جهات معينة لذلك قاومت دخول المطبعة ردحا من الزمن و أصحاب هذا الرأي يلمحون إلى العلماء و النساخ. . .و هذا الرأي كذلك عار عن الصحة لأن العلماء هم المستفيدون بدرجة أكبر، لما ستوفره لهم هذه المطبعة من كتب مختلفة فكيف يقفون أمامها و المطبعة الحجرية لا تقضي على النساخة بل تطورها وترفعها إلى فضاء أرحب، لأنها تحتاج إلى دربة الناسخ وجودة الخط في الكتابة و التصحيح و الترقيم و الرسم . . .

إن أهم سبب أدى في نظري إلى تأخر دخول المطبعة إلى المغرب يعود إلى أنها لم تكن في سلم الأولويات عند المخزن و موظفيه، فمن المعلوم أن حدود المغرب لم تعد آمنة بعد احتلال الجزائر سنة 1830م ، وظهر ضعف الجيش المغربي خلال هزيمة إيسلي 1844م و أصبحت الدولة مهددة في استقلالها تتناوشها رغبة أربع دول هي : فرنسا و إسبانيا

(30) مملكة الكتاب : 38.

و ألمانيا و إنجلترا ، ثم جاءت هزيمة تطوان 1860م لتزيد من إطماع الدول الأجنبية حوله و يزداد اقتصاده تدهورا و كان ما يشغل بال المغاربة هو السعي إلى تنظيم الجيش و البحث عن أسباب القوة بفرض مزيد من الضرائب و الكلف على القبائل وقد حدثت بعض الإصلاحات في ميادين كثيرة لم تؤت أكلها .

ورغم التقارير التي كتبها أمثال الصفار و العمروي لم يكن المخزن يدرك أهمية الطباعة لا على المستوى العلمي و التربوي ولا على المستوى السياسي و الاقتصادي وهذا ما فتح المجال للمبادرة الفردية ، و كانت المفاجأة من السي الطيب بن محمد التملي الروداني رحمه الله .

ج. هل يعتبر السي الطيب التملي أول من أدخل المطبعة إلى المغرب؟

يذهب بعض الدارسين إلى أن السي الطيب التملي الروداني مسبوق في جلب المطبعة بعدة محاولات قام بها أناس آخرون قبله ، وأصحاب هذا الرأي ليست لهم حجج قوية على دعواهم و البعض منهم اعتمد على روايات شفوية غير مضبوطة كما أن البعض وقع في الوهم و الالتباس لا غير وفيما يلي نعرض لهذه القوال و نناقش أصحابها :

1. يظن البعض أن دخول المطبعة إلى المغرب ، يعود إلى بداية القرن 16 م أي حوالي 1516م على يد دافيد يوسف أبو درهم الذي كانت له مطبعة يديرها صمويل بن إسحق نيفادوت و ابنه إسحاق ، وقد استمرت هذه المطبعة في العمل إلى سنة 1524م وأنتجت خلال هذه المدة خمسة عشر كتابا على الأقل[31]. ويستنتج صاحب هذا الرأي : أن المغرب أول بلد عربي إفريقي عرف الطباعة بعد تركيا مباشرة التي دخلت إليها المطبعة سنة 1493م[32].

وهذا الرأي بعيد عن الحقيقة للأسباب التالية :

- اعتماد صاحبه على مصدر وحيد في المسألة و هو الموسوعة العبرية[33] وقد حشاها أصحابها بأخطاء دينية و تاريخية و جغرافية كثيرة جدا .
- لو كانت في فاس مطبعة عبرية لظهر أثرها في المصادر المغربية العبرية والإسلامية على السواء[34]

(31) حفريات حول الطباعة بالمغرب : الدكتور محمد سديد، مجلة التاريخ المغربي، العدد 2، سنة 1997، ص 259.

(32) نفسه : 260 .

(33) حفريات التاريخ أم سطحية : الدكتور عبد الرزاق هرماس، نشرة الجمعية الروداني للثقافة و التراث، العدد 5 ماي 99، ص 49 و جريدة العلم العدد 17603 بتاريخ 98/7/8 ص 12.

(34) مملكة الكتاب : 129.

- النسخ الموجودة من الكتب المنسوبة لهذه المطبعة ليست عليها أية إشارة إلى مكان النسخ ولا إلى تاريخه[35] .

وعليه فالغالب على هذه المطبوعات مما زعم أنه من نشر المطبعة العبرية بالمغرب أن تكون مما جلب من إسبانيا أو البرتغال، كما أشار إلى ذلك فوزي عبد الرزاق[36] وإثبات وجود هذه المطبعة يحتاج إلى حجج أقوى مما ساقه الدكتور محمد سديد وغيره و إلى أن تظهر قرائن أخرى، لابد من التأكيد عى أن شكوكا قوية جدا تحوم بالفعل حول وجود مطبعة عبرية في المغرب في التاريخ المذكور.

2. ويذهب بن شنب وليفي بروفنصال في جردهما التسلسلي لمطبوعات فاس سنة 1922م إلى أن المطبعة دخلت إلى المغرب في عهد المولى إسماعيل سنة 1714م[37] وهذا خطأ بين لأن المطبعة الحجرية لم تخترع إلا في 1797 م في ألمانيا و لم تكن رائجة في أوربا إلا في بلدان قليلة، ولم يورد الكاتبان أية حجة قوية على أن الكتب التي ذكراها طبعت بالفعل قبل فترة محمد الرابع، و من خلال البحث الذي أجراه الأستاذ جرمان عياش على هذه الكتب تبين أنها مخطوطات و ليست بمطبوعات على الحجر[38] وبذلك يتبين بأن سبب الخطأ عدم تمييز الكاتبين مابين المخطوط و المطبوع على الحجر .

3. ويزعم كيطان دلفين في المقال الذي كتبه سنة 1889 م حول فاس وجامعتها والتعليم الإسلامي العالي بأن المطبعة استخدمت في المغرب في أول أمرها من طرف المخزن قبل أن تترك للخواص عشرين سنة بعد ذلك [39] .

4. ويذهب جورج سالمون إلى أن المطبعة دخلت إلى المغرب عن طريق تركي فاشتراها السلطان وكافأ التركي، وبعد سنة ادعى الناس أن التركي كان مسيحيا فتم الاستغناء عنه ، وذكر من منشورات المطبعة : الخرشي وميارة والتاودي و أنها كانت في درب الحمام بفاس[40]

5. أما جاك بيرك وروجي لوتورنو فهما يقولان بأن الطيب الأزرق هو أول طابع في المغرب و بأنه جلب المطبعة من المشرق مع تقني في الطباعة ويقول لوتورنو بأن أول كتاب طبع هو "شرح إحياء علوم الدين" للشيخ المرتضى [41] .

(35) نفسه : 128.

(36) مملكة الكتاب : 129 .

(37)L'apparition de l›imprimerie eu Maroc, German Ayach, Hesperis- Tamuda, 1964, vol 5, p:150-151.

(38) Ibid

(39) Ibid

(40) L'apparition de l›imprimerie au Maroc : p 144

(41) ibid 144

وهذه الأقوال الثلاثة الأخيرة كذلك عارية عن الصحة وبها أخطاء كثيرة و سبب هذه الأخطاء هو الاعتماد على الرواية الشفوية دون تمحيص علمي أو رجوع إلى مصادر مكتوبة ، وهي كلها تتحدث عن مطبعة السي الطيب الروداني لكنها تختلق الأحداث و الشخصيات وتزيد وتنقص حسب روايات الرواة وهكذا يصبح الطابع المصري تركيا تم الاستغناء عنه في حادثة مختلقة و غير موجودة و يصبح الطيب الأزرق وهو من تلاميذ الطابع المصري ، من جلب المطبعة رأسا من المشرق ، ولعل ما يؤكد أن المعطيات المذكورة تتعلق بالمطبعة الرودانية الإشارة إلى الكتب الثلاثة وهي بالفعل من أوائل ما طبع بها و لم يكن شرح الإحياء أول كتاب يطبع بل « الشمائل الترميذية » كما هو معلوم .

و ينبغي الإشارة إلى أن الطيب الأزرق لم يكن أمينا فيما رواه للرندي عندما أخفى ذكر السي الطيب و زعم أن الشيخ محمد المصري و رد و صحبته مطبعة حجرية إلى ثغر الصويرة إلى آخر القصة [42]، و من أشباه هذه الرواية تسلل كثير من الأخطاء. . .

بعد سوق هذه الآراء و مناقشتها لم يتبق لنا إلا أن نعتمد القول بأن السي الطيب التملي الروداني هو بالفعل أول من أدخل المطبعة إلى المغرب وهذا الرأي يعتمد على مصادر صحيحة وروايات شفوية أمينة . . .

(42) المطبوعات الحجرية : فوزي عبد الصادق : 9.

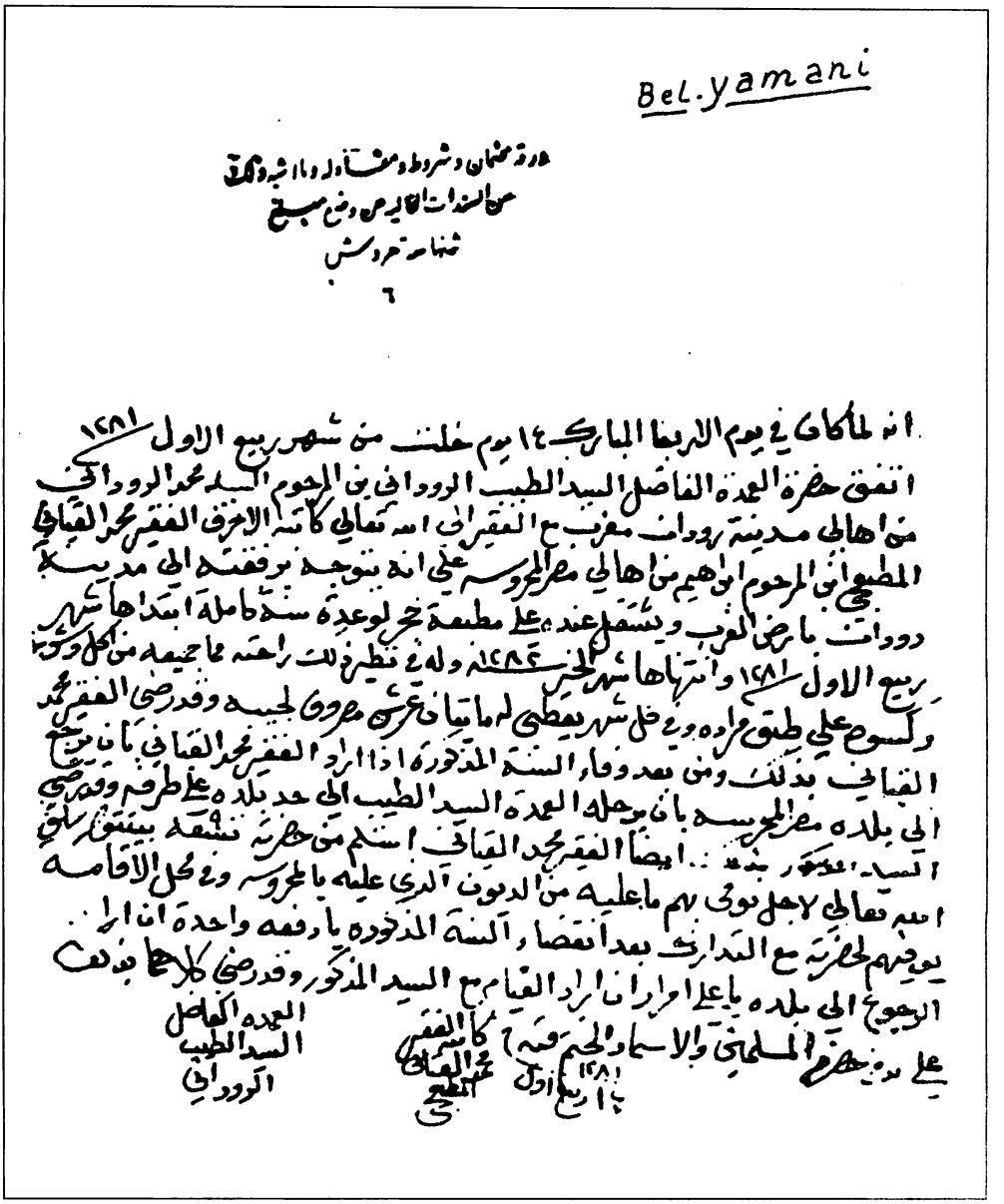

Bel.yamani

العقدة التي بموجبها جلب القاضي الطيب بن محمد التملي الروداني الطابع والمطبعة إلى المغرب

قصة إدخال السي الطيب المطبعة للمغرب

ذهب السي الطيب لحج بيت الله الحرام سنة 1864م وعند عودته عرج على مصر فاشترى بها مطبعة حجرية وعقد مع طابع مصري يدعى محمد القباني عقدة لمدة سنة من أجل تشغيل المطبعة في مدينة تارودانت وفيما يلي نص العقدة :

إنه لما كان يوم الأربعاء المبارك 14 خلت من شهر ربيع الأول سنة 1281 ، 17 غشت 1864 اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني ابن المرحوم السيد محمد الروداني من أهالي مدينة رودان مغرب مع الفقير إلى الله تعالى كاتب الأحرف الفقير محمد القباني المطبعي ابن المرحوم ابراهيم من أهالي مصر المحروسة على أنه يتوجه برفقته إلى مدينة رودان بأرض المغرب ويشتغل عنده على مطبعة حجر لوعدة سنة كاملة ابتداها [كذ] شهر ربيع الأول سنة 1281(غشت 1864) وانتهاها [كذا] شهر الخير [كذا] سنة 1282 نونبر 1865 وله في ذلك راحته مما جميعه[كذا] من أكل وشرب وكسوة على طبق مراده وفي كل شهر يعطي له مائتان قرش مصروف لجيبه وقد رضي الفقير محمد القباني بذلك ومن بعد وفاء السنة المذكورة إذا أراد الفقير محمد القباني أن يرجع إلى بلده مصر المحروسة ، بأن يرحله العمدة السيد الطيب إلى حد بلده على طرفه، وقد رضي السيد المذكور بذلك .

و أيضا الفقير محمد القباني استلم من حضرته تسعة بينتو سلف الله تعالى لأجل يوفى [كذا] بهم ما عليه من الديون الذي عليه بالمحروسة، وفي محل الإقامة يوفيهم لحضرته مع التدارك، بعد انقضاء السنة المذكورة في دفعة واحدة إن أراد الرجوع إلى بلده ما على أمر [كذا] إن أراد القيام مع السيد المذكور، وقد رضي كلاهما بذلك على يد من حضر من المسلمين و الأسماء [كذا] والختم في 14 ربيع الأول سنة 1281 ، 17 غشت 1864 ، كاتبه الفقير محمد القباني المطبعي، العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني[43].

أ. دراسة العقد :

تضمن هذا العقد جملة من الالتزامات المتبادلة بين السي الطيب و الطابع المصري ، وقد كان السي الطيب رحمه الله كريما مع الطابع ويظهر كرمه فيما يلي :

- تقديم سلفة مالية للقباني من أجل الوفاء بديونه.
- موافقته على إعطائه أجرته الشهرية قبل إبرام العقد بسبعة عشر يوما .

(43) مظاهر يقظة المغرب الحديث 1 /261 و مملكة الكتاب 139 – 140 .

- موافقته على إدخال الأيام السالفة من شهر ربيع الأول ضمن مدة العقدة السنوية التي تربطه بالطابع .
- التزامه بكل ما طلبه القباني من أكل و شرب وراحة .
- التزامه برد الطابع إلى بلده على نفقته .

لم يكن السي الطيب رجلا ساذجا فقد كان يعرف ما يفعل وتحمل فوق طاقته لأن له مشروعا يستحيل تنفيذه على أرض الواقع بدون وجود طابع خبير فلاشك أنه رحمه الله طاف على أبواب الطابعين أياما وجال بين ورشاتهم وناقشهم فلم يجد من يستجيب له سوى هذا الطابع المفلس الذي يحتاج إلى من ينقذه من ورطته فوجد بدوره في السي الطيب من يؤدي عنه ديونه ويفرج عنه كربته ويضمن له أكثر من ذلك أجرة سنية و أفقا أرحب لمهنته ، فليس له بد من المغامرة لمدة سنة يستأنف بعدها نشاطه الطباعي بشكل أحسن بعد عودته من المغرب بمال وفير .

نعم لقد غامر محمد القباني بدوره مغامرة غير محسوبة العواقب بقبوله الذهاب إلى المغرب مع السي الطيب و المغرب بلد ناء عن مصر لا يعرف شيئا عن ظروفه السياسية و أحواله الاجتماعية ولا مناخه وتضاريسه .

وقد وردت في صيغة العقد عبارات ركيكة و أخرى بالعامية المصرية و هي أمور ترد بكثرة في العقود في كل بلد، كما أن القباني كتب بالياء هكذا : "القياني" وهو تصحيف فقط و الاسم الصحيح بشهادة من تعاملوا معه من أمثال الطيب الأزرق وهو من تلاميذه أنه القباني وليس القياني .

ب . لماذا جلب السي الطيب التملي المطبعة؟

لنا أن نتساءل عن المشروع الفكري و الثقافي و حتى الاقتصادي الذي كان السي الطيب يفكر فيه عندما قرر جلب المطبعة إلى المغرب ؟

لقد جازف السي الطيب مجازفة كبيرة :

- جازف في السبق على المخزن ممثلا في السلطان وكبار الموظفين من الوزراء و الباشوات و القواد في المناطق ورؤساء الطوائف الدينية .
- جازف في صرف المال الطائل في مشروع مجهول النفع و العاقبة و لا يدري هل سيكون له مردود يفي على الأقل برد النفقات .

- جازف بجلب المطبعة ليس إلى الحواضر المغربية و المعروفة و أماكن الإشعاع العلمي و الثقافي مثل فاس و مراكش ومكناس بل إلى مدينة نائية هي مدينة تارودانت بعيدة عن مراكز التموين بالأدوات اللازمة للطباعة ، وليس فيها عمال أكفاء يقومون بما تحتاج إليه الطباعة من نسخ وتصحيح وتصفيف وتسفير و لا تتوفر فيها الأجواء العلمية من كثرة علماء وطلبة وهم الزبناء الافتراضيون للبضاعة التي ستصدرها المطبعة ، مع غلبة اللهجة الأمازيغية على المحيط وتسلط الحكام المحليين و أغلبهم جهال و أجلاف وظلمة لا يفهمون في مثل هذه المحاولة إلا تطاولا على المخزن وابتداعا لا يخلو من خطورة .

مهما قلنا ومهما افترضنا يبدو أن السي الطيب كان يعرف ما يفعله و أنه حسب لكل خطوة حسابها و إجراءاتها اللازمة ، وكان مصمما على إنجاح مشروعه ،ـ ولعل ما ألزم نفسه به في العقد من واجبات تجاه الطابع تدل عل هذا العزم القوي .

لم يتمكن مع الأسف ، من تحقيق مشروعه بسبب حادث المصادرة في الصويرة ودون أن نكثر من الافتراضات عما كان يفكر فيه السي الطيب يمكن أن نقول بكل بساطة بأنه كان عالما كبيرا وكان مدرسا ولا شك أن تجربته التعليمية أوقفته على كثير من المشاكل و العوائق التي يتخبط فيها العلماء وطلبة العلم على السواء و في مقدمتها غلاء الكتب وندرتها ومشاكل النساخ، وبجلبه للمطبعة كان يروم أن يسهم في حل جزء من هذه المشاكل بتوفير الكتب الدراسية أولا ثم الكتب الدينية الأخرى طلبا للأجر و الثواب أكثر منه بحثا عن الربح المادي ، هذا كل ما في الأمر .

إذا عرفنا ما عاناه المخزن في تسيير المطبعة رغم إمكاناته المادية واستعانته بأموال الأوقاف تبين لنا أن إمكانات السي الطيب ما كان لها أن تمكنه من تحقيق رغبته في طبع الكتب وترويجها وانتظار الربح من وراء ذلك، كما أن الافتراض بكونه يريد الاستعانة بها في الأعمال الإدارية المتعلقة بعمله كقاض على تارودانت وسوس كذلك بعيد، لأن هذه المهنة إلى اليوم في المغرب تسير بشكل تقليدي والعدول هم من يقومون بكل العمل وكل العقود إلى عهد قريب تحرر باليد و القاضي إنما يخاطب على الرسوم فقط .

ج. لماذا اختار السي الطيب المطبعة الحجرية؟

في الوقت الذي جلب فيه السي الطيب رحمه الله المطبعة الحجرية ظهرت المطبعة السلكية أو ذات الحروف المتحركة و هي أكثر تطورا من الحجرية ، لكن السي الطيب فضل هذه الأخيرة في نظري للأسباب التالية :

1. غلاء المطبعة السلكية الذي سينتج عنه غلاء بضاعتها .
2. عدم رغبة السي الطيب في إحداث انقلاب في مسيرة الخط المغربي و كان حريصا على المحافظة عليه ، و المطبعة الحجرية تمكن من الانتقال إلى عالم الطباعة دون مس بخصوصيات الخط العربي .
3. عدم احتياج المطبعة الحجرية لمهارات كبيرة إذ يمكن إدارتها بطابع واحد مع عمال قلائل في المهن الأخرى الجانبية .
4. المواد التي تحتاج إليها المطبعة الحجرية يمكن العثور على أغلبها محليا واستيراد البعض الآخر من المشرق أو من جبل طارق أما المطبعة السلكية فأغلب المواد التي تستعملها تستورد في أوربا .

لهذه الأسباب ، ونظرا لمعرفة السي الطيب بما ينتظره من مصاعب في المغرب وتارودانت ، قرر جلب المطبعة الحجرية وصرف النظر عن السلكية رغم تطورها .

د . كيف انتقلت مطبعة السي الطيب التملي الروداني إلى المخزن؟

عندما وصلت السفينة التي أقلت السي الطيب مع القباني إلى ميناء الصويرة في شتنبر 1864م أخبر أمين المرسى القباج الذي كان يدعى بالفرنساوي قائد المنطقة عبد الله أوبيهي السوسي بأمرها فكاتب هذا الأخير السلطان يستفسر عن الإجراء الواجب القيام به فأصدر السلطان آمره بنقل المطبعة مع الطابع إلى مكناس حيث كان يقيم(44) .

يتكلم عبد الرحمان بن زيدان عن ظروف نقل المطبعة من السي الطيب إلى المخزن قائلا : "وجاء الأمير سيدي محمد هذا" السلطان محمد الرابع"المطبعة التي تطبع فيها الكتب هدية أهداها له خادمه الفقيه العلامة سيدي الطيب الروداني قاضي تارودانت من سوس لما حج ورجع من الحج وجاء بشيخ كبير عارف بكيفية الطبع فقبل الأمير منه الهدية و أكرم الشيخ المذكور و أجرى عليه النفقة و أعطاه ما يحتاج إليه من خدمة" (45) .

ويقول محمد المختار السوسي متحدثا عن السي الطيب "ومن مآثره أنه هو الذي اشترى في حجته المطبعة الحجرية الفاسية يديرها لنفسه ثم حازها منه سنة 1281 السلطان سيدي محمد بن مولاي عبد الرحمن" (46) ولفظ الحيازة الذي عبر به العلامة المختار السوسي لفظة لبقة قد تفهم منها المصادرة وقدي .

(44) مملكة الكتاب : 141 و المطبوعات الحجرية : 9 .

(45) مظاهر يقظة المغرب الحديث : 26/1 .

(46) خلال جزولة : 120/ 121 .

الصفحة الأولى من كتاب الشمائل الترميذية وهو أول كتاب يطبع بالمطبعة الرودانية

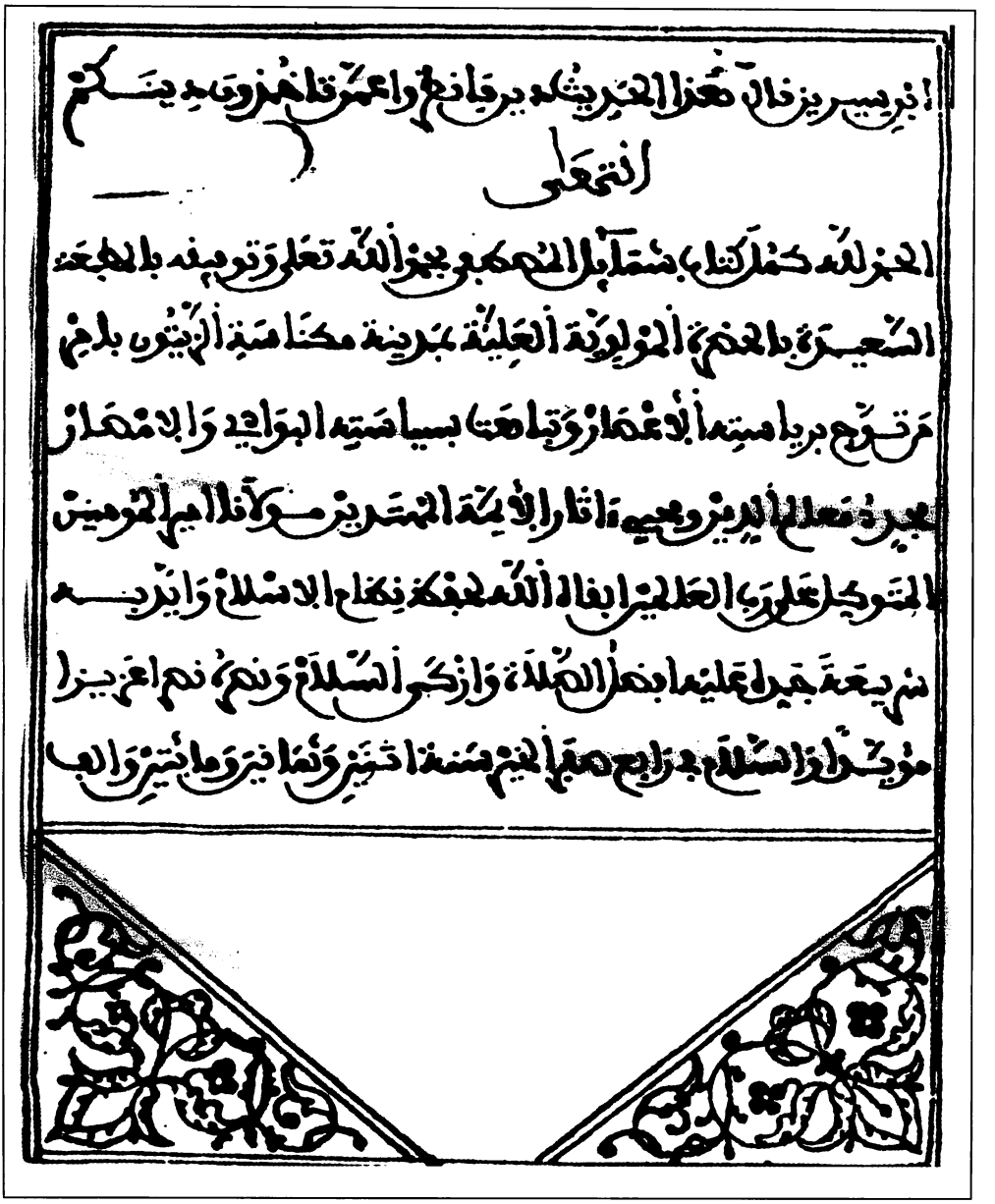

الصفحةالأخيرة من كتاب الشمائل الترميذية

فهم منها الشراء والهدية ، ويصرح محمد المنوني ومعه فوزي عبد الرزاق بأن ظروف نقل هذه المطبعة من السي الطيب إلى المخزن لاتزال غامضة [47].

ولا غموض في نظري في المسألة و الأمور واضحة جدا فقد استولى المخزن على المطبعة ولم يكن هناك شراء أو إهداء ، يقول فوزي عبد الرزاق بعد أن ناقش المسألة:"وتدفعنا كل هذه القرائن على القول بان كل ما في الأمر هو أن المخزن أقدم على مصادرة آلة الطباعة"[48].

ولعل قصيدة أبي العباس الجشتيمي في رثاء السي الطيب تزيل بعض اللبس الحاصل حول هذه المسألة عندما تشير إلى أن الرجل مات وفي نفسه غصة ولاشك أن ذلك بسبب مخلفات الاستيلاء على المطبعة كما أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد بل امتد إلى التضييق على الرجل في مسقط رأسه ومقر عمله إلى أن مات رحمه الله .

يقول الجشتيمي :

وإن جل مايعرو كما جل ما جرى بحمل أخ كالطود جبرا إلى القبر

إمام الهدي و العلم و الحلم سيد الرضا الطيب المشهور كالروض بالزهر

ويقول في خاتمتها :

فما أوتي الإنسان في غالب الأمور إلا من الإفشاء و البث بالسر

فـــكل كـــلام بثـه عائـــد بضـــر أو فوت نفع فهو أجدر بالستر [49]

لم يشرح لنا الحاج أحمد الجشتيمي سبب الوفاة ولا الجهة التي سببت فيه فهل هي المخزن عن طريق نوابه المحليين من آل بومهدي الهواريين الذين كانوا يحكمون في تارودانت ؟ لا نستطيع الحسم لأن الأدلة تعوزنا ، وما هو الكلام الذي كان بثه عائدا بالضر؟ هل هو تبرم السي الطيب وعدم سكوته على حقه في استخدام الآلة التي جلبها بنفسه وصرف عليها من حر ماله؟ لاشيء يثبت ذلك أيضا ومن خلال تلميحات الحاج أحمد الجشتيمي يظهر أن هذه الجهة لا يمكن أن تخرج عما ذكرناه آنفا.

(47) مظاهر يقظة المغرب الحديث : 1 /262 و المطبوعات الحجرية : 9 .

(48) مملكة الكتاب : 141.

(49) خلال جزولة : 121/ 122 .

هـ. هل رأى السي الطيب التملي ثمار المطبعة ؟

يقول فوزي عبد الرزاق : "يبدو أن الروداني توفي سنة 1865 م دون أن يكتب له مشاهدة أول إنتاج بالآلة التي بذل قصارى جهوده لاقتنائها"[50].

كما يصرح المختار السوسي بوفاته في نفس السنة كما ألمحنا إلى ذلك سابقا، وعلى العكس من ذلك فقد عاش السي الطيب إلى أن رأى بالفعل المطبوعات الأولى التي طبعت بمطبعته، فهناك رسالتان تحتفظ بهما الحوالة الحبسية لتارودانت من الحسن الأول وهو ولي للعهد إلى القاضي السي الطيب التملي:

ومما جاء في الأولى :

"الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله .

محبنا الأعز الأرضى الفقيه القاضي السيد الطيب بن محمد التملي سلام عليك ورحمة الله، عن خير سيدنا نصره الله، وبعد فلما كانت همة سيدنا نصره الله دائما تراقب المعالي و على يمن المناهل مطمح نظره المنزه العالي و رأى أيده الله أيدي الدروس أسرفت في انتهاب الكتب العلمية في هذه الديار المغربية أجال أجله الله فكره الشريف فيما تحيى به وتنتشر فجلب أعزه الله من أقاصي المشرق آلة طبع الكتب فجدد بها ما دثر من تلك الآثار رائما تكثيرها وانتشارها كل الانتشار في سائر حواضر المملكة الشريفة المزدهية بشريف طلعته، ومن سياسته الحميدة جعل نصره الله عددا من نسخ الشمائل تبركا بالافتتاح بها، ومن شرح ميارة الصغير على ابن عاشر وشرح الأزهري على الجرومية ، وهو أعزه الله آخذ في طبع الخرشي على مختصر خليل، وشرح التاودي على ابن عاصم واقتضى نظره الشريف أن يوجه لكل مدينة عددا مما طبع وفرغ منه لخزانة العلم الشريف بها لينتفع به أهل العلم بردانة و أمر ناظر أحباسها بتوجيه الثمن المرسوم قبالته يحوزه ماصير عليه ، وعلى غيره من الكتب التي لم تكتمل يصل العدد المعين منها للخزانة إن شاء الله و السلام في ربيع النبوي عام 1285 هـ ومن هذه الرسالة أيضا قوله : " و كن تعاهدها المرة بعد المرة مع كل شهر مع مزيد الاعتناء بها وحسن القيام بصيانتها ، كما ورد بها جرد للكتب المطبوعة وما يوازيها من الثمن و النسخ :

- الشمائل خمس نسخ سوم 62 يجب 310
- ميارة 15 نسخة سوم 57 يجب 885
- الأزهري 10 نسخ سوم 27 يجب 270

(50) مملكة الكتاب 141 .

مجموع النسخ : 30 ومجموع الثمن مائة مثقال وثلاثة و أربعون مثقالا وخمس أواقي [51] وهذه الرسالة تفيدنا إفادات كثيرة منها :

- أن السي الطيب لم يمت سنة 1282هـ أي 1865م حيث كان حيا سنة 1284 أو 1285 كما يظهر من خلال هذه الرسالة و التي ستأتي بعدها .
- تجانب الرسالة الحقيقية عندما تصرح بأن السلطان هو الذي جلب المطبعة ومن غرائب الدهر ومصادفاته العجيبة أنها تقول ذلك لمن جلب المطبعة بالفعل وهو السي الطيب.
- تفيد الرسالة أن أول كتاب طبع بالمطبعة الرودانية هو "الشمائل الترمذية" تبركا بالسيرة النبوية كما طبع معه "ميارة على ابن عاشر"و "التاودي على ابن عاصم"و"الأزهري على الأجرومية" وكلها كتب تعليمية دراسية مهمة في التعليم التقليدي المغربي .
- تؤكد الرسالة على ضرورة دفع ثمن"شرح الخرشي على المختصر"وكذا "شرح التاودي على تحفة ابن عاصم"رغم عدم توصل السي الطيب بها، وهذا يشير إلى المتاعب المالية التي بدأت تظهر في سير عمل المطبعة ومن بين الحلول المقترحة لتجاوز العجز المالي بيع الكتب قبل طبعها من أجل تغطية جزء من المصاريف .
- لم تكن الكتب المطبوعة كلها مخصصة للبيع العمومي بل وضع أغلبها في الخزانات العمومية بالمساجد وكان نصيب مدينة تارودانت ثلاثون نسخة .
- الذي دفع ثمن النسخ هي نظارة أحباس تارودانت تحت نظر القاضي الذي كلف في الوقت نفسه بالإشراف على الخزانة وصيانتها .
- تاريخ كتابة الرسالة 1284هـ/...م يوافق المرحلة الفاسية من انتقال المطبعة إلى يد المخزن تحت إشراف ولي العهد الحسن الأول وتسيير الصدر الأعظم الطيب بليمني:

و أما الرسالة الثانية فقد ورد فيها فيما يلي :

"الحمد لله و الصلاة على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

محبنا الأرضى الفقيه القاضي السيد محمد الطيب التملي سددك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا نصره الله وبعد: فقد وافانا كتابك جوابا عما كتبنا لك به صحبة الكتب العلمية الموجهة مع حضرة سيدنا العلية للخزانة الكتبية بردانة المحمية وقد

(51) الحوالة الحبسية : 120/ 121

عرفنا ما أخبرت به من قيامك بمقتضى ما كتب في شأن ذلك حتى ألحقت بمحلها وأشهدت بذمة ناظر الأوقاف هنالك بعد كتب التحبيس على كل سفر سفر منها و الإيصاء بصيانتها وتعاهدها و التحفظ بها ثم وجهت صحبة مائة مثقال مفردة وزيادة ثلاثة و أربعين مثقالا ونصف الواجبة فيما صير عليها ، فقد وصل ذلك طبق ما ذكرت وحبذا ما فعلت، أعنت وبورك فيك وعلى محبتك طالبا صالح أدعيتك و السلام في جمادى الأولى عام 1284 هـ[52]"

وهذه الرسالة تشير إلى أن السي الطيب بادر إلى تطبيق أوامر المخزن دون تلكؤ أو اعتراض وبسرعة كبيرة ، كما تظهر أن المخزن في صورة ولي العهد كان راضيا على فعل السي الطيب و العبارات المستعملة في الرسالة خير دليل على ذلك .

و . المطبعة الرودانية في يد المخزن

مرت مطبعة السي الطيب التملي بالعديد من المراحل وانتقلت ما بين أماكن متعددة وفيما يلي المسار الذي اتخذته .

1 . المرحلة المكناسية

بعد إعلان قرار المصادرة من طرف محمد الرابع بمشورة من الصدر الأعظم الطيب بليمني و وزير الشكايات محمد الصفار انتقلت المطبعة من الصويرة إلى مكناس حيث كان السلطان مقيما وكان محل عملها في الهديم[53] .

ونظارة أحباس مكناس كانت هي الجهة المكلفة بالإنفاق عليها وكان القباني يحصل على الكسوة ومثقالين كل يوم ، أي ثلاثة أضعاف ما اتفق عليه مع السي الطيب[54] .

وكانت منشورات المطبعة خلال هذه الفترة تتمثل في كتاب "الشمائل النبوية" للترمذي الذي خرج يوم 29 يونيو 1865م في مائة و أربعة و أربعين صفحة من الحجم الصغير وفي مائة و ثلاثة من النسخ [55]

(52) الحوالة الحبسية : 129/130

(53) المطبوعات الحجرية : 9

(54) L'apparition de l'imprimerie au Maroc: 155

(55) Ibid

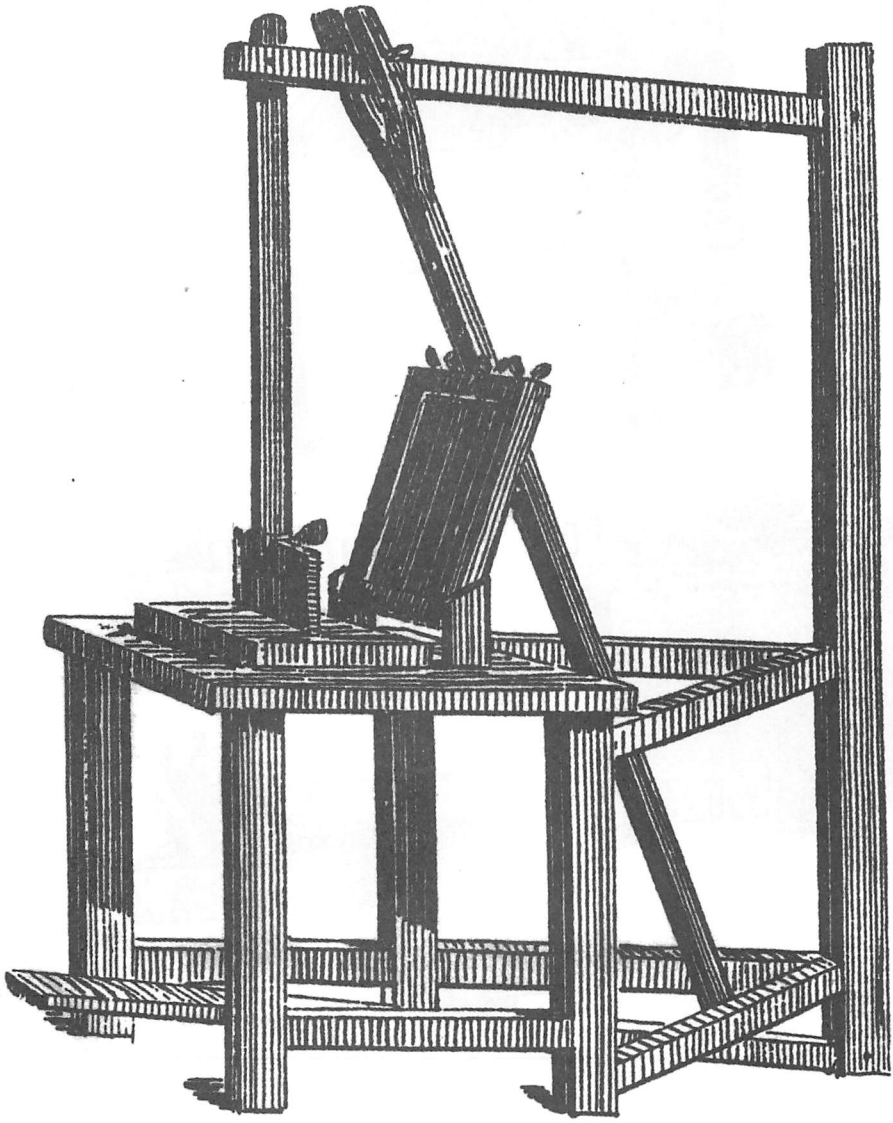

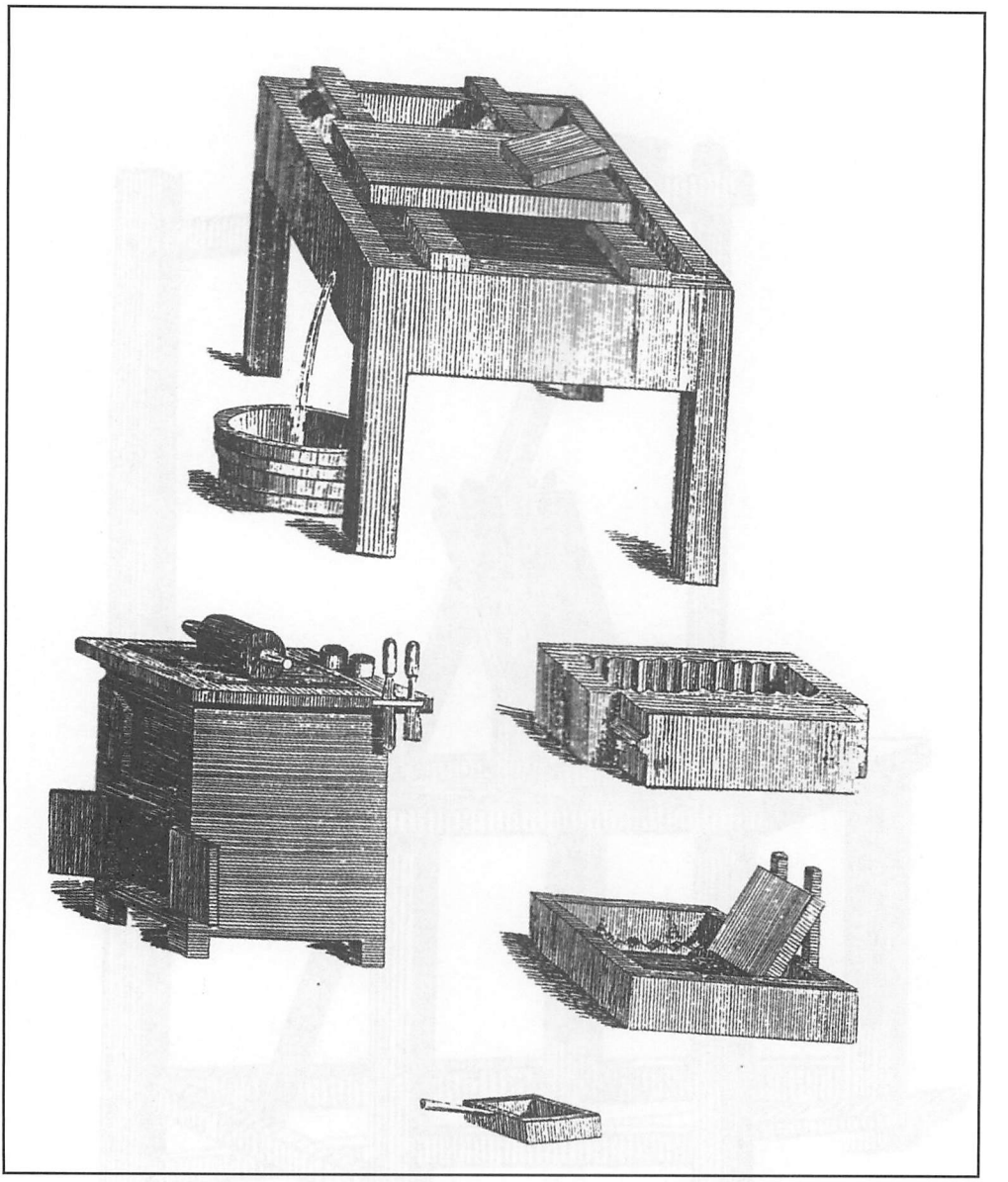

بعض الأدوات الخاصة بالطباعة الحجرية

2. الفترة الفاسية الأولى

بقيت المطبعة الرودانية في مكناس سنة كاملة نقلت بعدها لفاس سنة 1865م بطلب من القباني نفسه عندما استفسر عن فاس وعلم عدد علمائها و المتعلمين بها [56] ولعل تفتح شهيته إلى مزيد من المال هو ما دفعه إلى الرغبة في الالتحاق بفاس .

أول موضع وضعت به المطبعة الرودانية هو "كزا برقوقة" وهو موضع ممتاز قريب من مساكن العلماء و الأسواق و مصادر المياه التي تستعمل بكثرة في الطباعة لقربه من وادي فاس[57].

وقد وظف القباني العدد الكافي من العمال الذين تحتاج إليهم المطبعة وتكلفت أحباس القرويين بالمصاريف و الخزينة العامة بالطعام و الكسوة و أصبح أجر القباني ثلاثة مثاقيل يوميا أي ما يعادل ست مرات ما اتفق عليه مع السي الطيب[58].

ومما يبرز الأهمية التي كان السلطان محمد الرابع يوليها لهذه المطبعة تكليف الصدر الأعظم الطيب بليمني بالإشراف على حسن تسييرها وتتبع مصاريفها وكذا تكليف ولي العهد المولى الحسن ببيع الكتب في أرجاء المغرب مع فتح دكان لذلك الغرض في مراكش[59].

ومن منشورات المطبعة في هذه الفترة :

- "شرح الأزهري على الأجرومية" وقد ظهر في سنة 1866م في مائة وثمانين نسخة.
- الجزء الأول من"الخرشي على المختصر" في نفس السنة و في ستمائة نسخة.
- "شرح ميارة على المرشد المعين"في نفس السنة وفي ثلاثمائة نسخة[60].

كانت مصاريف المطبعة باهضة جدا ولولا تكفل الأوقاف و المخزن بالمصاريف لما واصلت عملها ومنتوجها كان ضعيفا يشبه المخطوط ولم ترخص الأثمان بل ربما زادت و المهم من كل هذا أن ثمن الكتاب بقي بعيدا عن القدرة الشرائية لمثقفي ذلك الوقت.

---

(56) المطبوعات الحجرية : 9

(57) مملكة الكتاب : 152

(58) L'apparition de l'imprimerie au Maroc : 158

(59) ibid : 158

(60) ibid : 158

3. المطبعة الرودانية في يد الخواص

عندما واصلت المطبعة استنزاف أموال الأوقاف و الخزينة العامة قرر المخزن تفويتها إلى الخواص في شخص الطيب الأزرق سنة 1871م أي بعد رحيل القباني إلى مصر.

وقد نجح الطيب الأزرق في تسيير المطبعة ونشر العديد من الكتب مثل "نوازل العلمي" و "المنهج الفائق"للونشريسي و"إتحاف السادة المتقين" بالإضافة إلى مؤلفات كبار كتاب العصر مثل الشيخ ماء العينين القلقمي ومحمد بن عبد الصمد كنون[61].

كما أشرف على تعليم العديد من التلاميذ الذين واصلوا المسيرة بعده و خلال هذه الفترة دخلت المطبعة الميكانيكية إلى المغرب وظهر طابعون آخرون أمثال العربي الأزرق و المكي بن إدريس و عبد السلام الذويب و أحمد بن الطيب الأزرق ومحمد بن قاسم البادسي و غيرهم [62] .

4. مآل المطبعة الرودانية

أعاد المولى عبد الحفيظ سيطرة المخزن على المطبعة الرودانية التي كانت تحت إدارة أسرة الأزرق وحاول تأميم العمل الطباعي في المغرب رغبة منه في إسكات أصوات مناوئيه ، لذلك عمد إلى السيطرة على المطابع الأخرى بدليل اختفاء أسماء الطابعين من الكتب خلال فترة حكمه.

وكانت المطبعة هي الوسيلة التي اعتمدت عليها كل الأطراف المغربية المتنازعة في كيفية التعامل مع الأجنبي المتربص بالبلاد.

وقد انشأ السلطان مطبعة سلكية وركز عمل الموظفين في عمل موحد كما ظهرت مطابع سلكية بعد ذلك في يد الخواص، كل هذا أضعف المطابع الحجرية ومنها المطبعة الرودانية لاسيما أن كتب السلطان كانت مطبوعة على الآلة السلكية [63].

ثم جاء دخول الحماية ليسارع من نهاية الطباعة الحجرية حيث دخلت آلات طباعية حديثة ومتنوعة مرتبطة بالنظام التعليمي الجديد و الذي طبقته فرنسا في المغرب ولم تمت المطابع الحجرية إلا في أواسط الأربعينيات عندما جمعتها السلطات الفرنسية وأحرقتها في خطتها لتجفيف منابع العمل الوطني الذي كان يعتمد على هذه المطابع في كتابة المناشير وتوزيعها ، وبذلك طويت صفحة مشرقة في تاريخ الثقافة المغربية .

---

(61) المطبوعات الحجرية : ١٢

(62) نفسه : 13 – 14–15

(63) المطبوعات الحجرية : 16

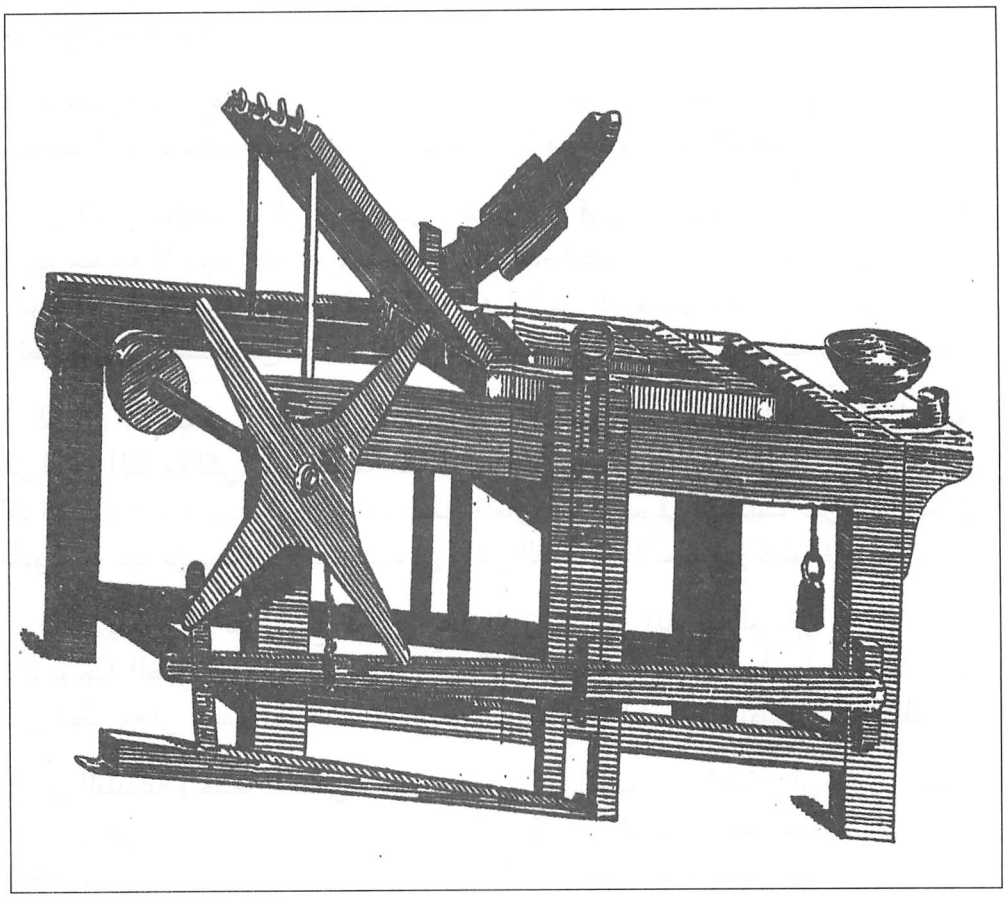

نموذج من المطابع الحجرية بعد تطورها

خاتمة :

يمكن أن نقول في نهاية هذا البحث بأن السي الطيب لم يظلمه معاصروه فقط ممن انتزعوا منه المطبعة وكذلك المؤخرون من أمثال الناصري و أكنسوس الذين أهملوه وصمتوا عن ذكره بل كذلك من جاءوا بعدهم حيث غمطوه حقه فلا تكاد تجد له ذكرا في كتب التراجم حتى "معلمة المغرب"الأخيرة لم يرد فيها في مادة التملي و لا أدري هل استدركوه أم لا .

لو ظهر السي الطيب في أمة أخرى لصنعوا له تمثالا و لأرخوا بتاريخ إدخاله المطبعة لأنه حدث فريد حقا يستحق صاحبه التجلة و الاحترام و الذكر الجميل.

إن السي الطيب التملي رجل سبق عصره و قرر أن يقتحم عالم المقاولة الثقافية وسط مجتمع لا تتوفر فيه شروط نجاح مثل هذه المقاولة ، فنحن نسمع الآن عن توجه الدولة إلى خوصصة كثير من قطاعاتها و هذا السي الطيب في سنة 1864م أي قبل قرن ونصف يقرر بنفسه خلق مقاولة ثقافية على حسابه الخاص لكن محاولته باءت بالفشل .

لم يكن المغرب في أواسط القرن التاسع عشر قد شهد توثبا إلى النهضة أو سعيا إلى اقتفاء أثر الأمم المتقدمة لكي تأتي المطبعة مكملة لهذا المجهود بل جاءت في فترات فراغ وفتور، لقد كانت رغبة فردية عن تطلعات بعض المغاربة و أملهم في التحديث غير أن صيحاتهم المدوية لم تجد من يسمعها لأنها كانت في واد و الفاعلون الأساسيون كانوا في واد آخر.

لذلك يمكن أن نقول مع فوزي عبد الرزاق بأن المغرب لم يكن في حاجة إلى تكنولوجية الطباعة و أن دخولها إلى أرجائه كان مجرد صدفة و أمرا عرضيا لا غير لأن الطباعة في عمقها تعني إحداث التغيير و تتطلب بالضرورة تطوير سوق الكتاب.

إن الطباعة وحدها لا تكفي لإحداث التغيير في المجتمع و لا يمكن أن تكون العنصر الأساس في أية نقلة حضارية بل لابد أن تكون الظروف السياسية و الاجتماعية والاقتصادية مواتية و مشجعة و ان يكون المجتمع متقبلا لهذه النقلة متحفزا للنهوض.

لقد كان السي الطيب نموذجا فذا قل ما يجود الزمان بمثله إذ فكر في مشروع جريء وبذل قصارى جهوده من أجل إنجاحه رغم كل العراقيل فدخل بمبادرته هذه التاريخ من بابه الواسع و الأمم العظيمة لا تتقدم إلا بمبادرات أبنائها العظام رحمه الله العلامة القاضي السي الطيب التملي الروداني رحمة واسعة و أثابه على عمله هذا الأجر الجزيل آمين .

المصادر و المراجع

المخطوطات

1. بكرة الافتضاض في بغية الانقضاض للبشير بوحدو السلاوي الخزانة الوطنية ج 97.
2. الحوالة الحبسية لتارودانت (نسخة مصورة).

المطبوعات

1. خلال جزولة محمد المختار السوسي تطوان المغرب 1373 .
2. المطبوعات الحجرية في المغرب : فوزي عبد الرزاق دار النشر المعرفة سنة 1989 م.
3. مظاهر يقظة المغرب الحديث محمد المنوني شركة النشر و التوزيع المدارس ط 2 سنة 1985 م.
4. المعسول محمد المختار السوسي مطبعة النجاح الدار البيضاء 1961م.
5. المعهد الاسلامي بتارودانت و المدارس العلمية العتيقة بسوس المتوكل عمر الساحلي دار النشر المغربية الدار البيضاء 1985م.
6. مملكة الكتاب : تاريخ الطباعة في المغرب فوزي عبد الرزاق منشورات كلية الأدب بالرباط 1993.

المقالات

1. حفريات حول الطباعة بالمغرب الدكتور محمد سديد دورية التاريخ المغربي العدد 2 السنة 1997.
2. حفريات التاريخ أم سطحياته للدكتور عبد الرزاق هرماس نشرة الجمعية الرودانية للثقافة و التراث العدد 5 / السنة 99 .
3. L'apparition de l'imprimerie au Maroc J. Ayach Hesjuris- Tamude 1964 vol 5